

اعتقال ذاكرة مواطن

وحدها كانت البناية ... « عندما سلطت من الشرفة ضحكة لعوب ، وصلعت وجهه بقسوة ، فاقنسل في وهج غضب اجتاحه سريعا ، ففز الى الرصيف الآخر ، لم وجد نفسه ينتصب بالباب :

حارية تماما في السرير ، فيما هنا اجزاء من جسدها كانت تغتلي للحظات ، عندما تهر يد العندي ، وتترك بصمات واضحة عليها ... ثم هوت يده بقوة . فاهتز البيت تحت ارتعاش صرخاتهما . وفجأة ، ران صمت مغيف ، اذ خمدت أنفاسهما ، كانت يسده لا تزال تقبض على السكين ، ثلاث طعنات او اكثر ، لا يدكر ، وكل ما يعرفه ، انه القى بجثة العشيق أرضا ، لم استدار نحوها واخذ يقطع ساقها اليمنى عند نهايتها قبل ان يعيله الى خيوط لعمياء مزققة .

- ١ -

وحدها كانت البناية ترف ، زواياها الاربع تطلت بامناق الارصفة تماما كما فعلت قديما في ذلك الوقت . كان الشارع صامتا على غير عادته ، وقد اختلفت منه الضحكات التي اعتادت الشرفات تبادلها في مثل هذا الوقت ، ولم يكن الليل قد تسال بعد ، غير ان نسمة رطبة ، عبرت الشارع خلسة ، عادت بعد قليل تحمل يرثا ملحوظا ، لم .. لا ادري لماذا تحولت الى موجات صقيع متتالية اوفي الحال شدت طرفي معطفي الاسود الى صدري جيدا ووقفت انتظر . وفجأة تسالط اطر فزير على رأسي ، وسبح بين شعيراته قبل ان يفساد اطرافها الى وجهي ، ويتسلل باردا ليستقر تحت ياقة قميصي الابيض . « سقطت اكف ثلاث على جسده من اعلى ، اثنتان تعلقتا بكتفيه ، وتشبثت اصابع الثالثة بياقة قميصه من الخلف ، وسمح صولا هامسا :

- لا تتحرك !!

رفع عينيه سريعا الى اعلى ، شاهد ابتسامة لموت على شفطي زوجته التي ما ان لحنه في تلك اللحظة ، حتى تراجعت مدعورة . وفي لحظة سريمة غامضة ، تلاشت الاشياء من حوله « . خطر لي ان اقطع الطريق الى الجهة المقابلة ، انزلت احدى قدمي من الرصيف ، لمست الماء وقد فطى وجه الطريق ، اوشكت على نقل اللدم الاخرى ،



غير اني تراجعت ، عندما انزلت عجلات سيارة مرت بسرعة ، ورشقتني بالماء المتسخ . عدت لانفدم من جديد ، فتبينت انها تركت وراءها ساقا بيضاء دامية . خطوط بضع خطوات نحوها ، واخذت قديما تفوضان في الماء الموحل ، حتى صار يتسلق اطراف سروالي ، ويعبر جسدي ممتزجا برعشة باردة ... واصلت التقدم باهتمام حتى صرت على بعد خطوتين من الساق ، وعندما توقفت لاحدق فيها ، شاهدت بوضوح ، خيوط دم تسبح نحوي ، تراجعت الى الوراء ، غير انها تابعت تقدمها ، وصعدت حداني ، ولاست اطراف سروالي . « لم افاق من غيوم تفكير اجتاح سماء رؤيته ، عندما صحا تماما من نوبة ألم غمرت نفسه للحظات . تحسس ملابسه باطراف اصابعه فالغاها جافة تماما ، وعندما نظر الى حدائه ، لم يعثر للدم على اثر ، رفع كفه اليمنى الى جبهته ، ثم هبط بها برفق وتحسس ملامحه ، الى ان استقرت كفه اسفل عنقه ، فتلمست اصابعه حبات عرق لزجة كانت تستقر هائلة تحت ياقة قميصه . جسال بصره فيما حوله ، كانت ثمة غرفة صغيرة ، يقبع في احد اركانها ، ومن حوله تجمعت ادوات مختلفة ، شبيهة بتلك التي تعلق على جدران المسالخ ، قال في نفسه : اذن ستبدأ الجولة الاولى بعد قليل !

- ٢ -

ضوء غبي قاسي سقط في عيني . صراخات امرأة يعتمرها الم صبرت اذني ، سمعتها تتردد في اعماقي بوضوح ... ايقنت انها صراخات امرات يترت ساقها للتو . (نظرت مرة ثانية الى الارض المكسوة بعياء الامطار ، شاهدت اللحم ممزقا في خيوط متعرجة ، يتدفق الدم من نهاياتها بلا توقف . رفعت رأسي الى اعلى ، شيء ما هبط مسلي جسدي ، ومن جديد صمت عن الرؤيا ، وعن الحركة ايضا) .

« وافاق على يد تمزه بعنف لم تبتعد ، ودخل المحقق ، وهو ضابط شاب في مقتبل العمر ، اسمر الوجه ، بدوي الملامح ، قال :

- ما اسمك ؟
- يونس ... يو.نس ، عبد الله...تاح ش ش ش هاته .
- مهنتك ؟
- عا ... مل
- أين ؟

- قلت ذلك ، في اهادتي الاولى !

محمود خالد السوافيري .

وبعد مرور اسبوع على هذا الحادث ، عثرت على عنوان بارز :
* العثور على شريفة يونس قتيلة امام البناية التي تقيم فيها -
رجال الاين يبحثون عن ساقها اليمنى ، التي بترهسا
القاتل !

ثم اخذت الصحف من حياتي طيلة المدة التي قضيتها فسي
السجن فيما بعد .

وفجأة عاد المحقق يقول :

- تعرف يا يونس ما فعله محمود ؟!

.....

- قد لا تصدق انما يمكن ان نكرر ما فعله ، وامامك أيضا .
يا ملي : احضروها حالا (خير الصحيفة كاذب من اساسه) انه
لا يصدق ان هذا ممكن جدا ! (لكنه لم يفعل !) غير ان الجندي تحرك
كديبة آلية ، وذهب لتنفيذ مهمته ، بينما عاد الضابط يسأل من
جديد :

- ما هي علاقتك بمحمود ؟

- قلت مجرد صديق !

- وما معنى ان نثر على ممنوعات ورسائل مذيلة بتوقيهك ؟!

.....

- نعم ، عثرنا على كل ذلك في ذات البيت الذي نامت فيه ...
(اكتسبت شفاها بصفرة مازكة) ... اسمع ! محمود هنا ، وعلى بعد
خطوات قليلة ، لقد ادلى باعترافات كاملة ، ويحسن بك ان تصترف
قبل ان تحضر !

- من .. ؟

- زوجتك طبعاً !

(دخلت الشمس مخدعي دافئة . دخلت زنزاتي خائفة . في
ذلك المساء الناعم كالهمسات . في ذلك الوقت المتسخ بلحظفات
الاعتقال . راحت تنزع ملابسها قطعة قطعة ، وترميني بها مازحة ، حتى
اكلت كلها من جسدي ، كل آلات التعذيب بلا استثناء . ولما صارت
زوجتي عارية ، صحت بها :

- لم اعرف جسدا كهذا يا شريفة !

وصرخت في وجوههم :

- لم اعرف قتلة مثلكم !

تقدمت مني تحمل ابتسامة راضية . وتقدم مني كشر الوجه ،
ياكل باسنائه الحادة طرف شفته السفلى .

قالت بعد ان احاطت عنقي بذراعيها :

- لو سمعك احد ، لما اعتقد انك زوجي !

ثم عانقتني بقوة واصافت :

- كانك تراه للمرة الاولى ! .

ورد الضابط بقوله :

- كانك لا تعرف شيئا . بل ولم تر شيئا . اذن سنريك !

اتت ، او على الاصح ، جاؤا بها . في مقلتيها حملت الدموع ،
وفي حدقتيها وهج النار ، وفي صدرها صرخات مكتومة . كان احد
الجنود يمسك بها من ذراعها اليمنى ، عندما اوقفها في مواجهة
يونس ، بينما عقد الضابط ساعديه على صدره ، وصاح بلفة امره
- اعترف .

« وذكرت يا سيدي ، انني رجسلا اعشق الفسحة العابرة ،
والمقيمة على الشفاه ، والراجفة ، والوائقة ، والوجلة ، والهادئة ،
والباردة ، والدافئة ، والاعتباطية ، والتي خطت لها من قبل ،
والزبية ، والمخادعة ، والتي تأتي دون قصد ، وكل ابتسامة تؤكد
لي ... » فهل تعفيني من التكرار ؟!

- اذن قل لي ! (رفعت رأسي نحوه) ما هي علاقتك بمحمود

خالد السوافيري ؟

- صديق !

ابتسم وهو يهز راسه ، وكذا فعل الجنود الذين احاطوا به ،
وكانوا جميعا من رجال السجون . « ومضت فترة صمت قصيرة ،
لم يسألني خلالها ، وبدا لي وكأنه يبحث عن مدخل آخر لاستجوابي » ،
وتواردت على خاطره افكار شتى وتدفتت في حرارة وهنق .

- ٢ -

محمود خالد السوافيري

وقف محمود في نفس المكان السلي ووقف فيه يونس قبيل
اعتقاله . وضع اصبعين في فمه ، واطلق صغيرا حادا . (ابتسم
له يونس ولوح بيده ، وكانت زوجته تقف الى جانبه في الشرفة ،
وبعد لحظات استدار يونس وزوجته ، واختليا داخل البيت ، حيث
بقيت الزوجة ، بينما هبط يونس لمقابلة صديقه على الرصيف فسي
مواجهة البناية ، وعندما تم ذلك نظرا معا الى الزوجة ، وكانت قد
عادت واظلت من الشرفة ، فوجدها تلوح بيدها مرحة) غير ان احدا
لم يطل ، وبقيت الشرفة فارغة ، فكرر ذلك مرة اخرى دون جدوى .
(شيء ما قد وقع !) قالها في ذاته ، وانطلق يركض نحو البيت ،
دخل البناية ، وارتقى السلالم باقدام لاهثة ، الى ان توقف امام
شقة يونس . كان الباب مفتوحا على مصراعيه ، ومن خلاله استطاع
ان يرى قطع الاثاث متناثرة في فوضى غريبة .

شريفه ... شريفه .

صاح بصوت يوشك على الاختناق ، الا ان احدا لم يعبه ،
فعاد ادراجه وهبط السلالم قفزا ، وما ان احتواه الشارع ، حتى
فوجده بشريفة تركض نحوه ، متناثرة الملامح شاردة اللهن ، صاحت :

- محمود !

- شريفة ! اين كنت ؟ ما الذي جرى ؟ تكلمي !

- لا شيء ، تعال ... اصعد معي . تركت الباب مفتوحا .

- اذن فقد اخذوه معهم ! اسمعسي ! اعطني مفتاح البيت ،

واذهبي في الحال الى بيتنا ، وانتظريني حتى اعود .

- ٤ -

(هذا الصباح جاء فريبا بكل تفاصيله ، هكذا قدرت في بداية
الامر ، اذ فتح باب زنزاتي ، والقي الي احدهم باحدى صحف
الصباح ، فاستبشرت خيرا بذلك ، ستطالع اخبار الدنيا ، غير انني
سرهان ما انكشيت على نفسي وادركت سبب هذا التحول في المعاملة :
* القبض على زوجة يونس عبد الفتاح تمارس الدعارة
* الزوجة تمضي ليلة كاملة ، في احضان الحامي المصروف

على ذلك ، ولا زلت اذكر كيف مررت السكين على فخذيها عند نهايته ، وكيف مزقت اللحم خيوطا رفيعة ، حتى اغرقتها في بحيرة قانية » .

- ٥ -

صدر فرار بالافراج عن يونس بعد الفشل في ارقامه على الامتصاف .

- ٦ -

(نور غامض مبتور ، تسلل الى زنزانتني ثم اختفى وعساد وسر على وجهي في آخر يوم .. وطيلة فترة السجن ظلت شريفة تصرخ في اعماقي . قتلتها ، لا انكر ذلك ، بل لا يمكنني تصور عدم وقوعه ! أليست هي التي اذلتني في جسدها ، انها صاحبة الساق المتتورة ، والمراخ المتواصل ، هي لم تصرخ أبدا لكنني سمعتها تفعل ، وانما اقف امام باب السجن الكبير . لم اشعر بخروحي المفاجيء ، لكنني احسست بانني تغيرت . استشعرت شيئا بين قدمي ، كان بركة ماء صغيرة . وفجأة احسست بدوار فاسي وانزلت احدى قدمي فسي البركة) فشهد خيوط السم تمضي ببطء شديد وتصعد حذاءه لتلامس اطراف سرواله .

- الا زلت تقف هنا ؟ الم يفرج عنك ؟ هيا .. هيا !

انتهره جندي يحرس بوابة السجن ، وكان يونس قد افاق لتوه من نيبوبة قصيرة . استدار ، حمل قدميه ومضى .

وهناك في نفس المكان الذي سقطت فيه الاكف على جسده من اعلى وقف قليلا ، تطلع نحو البناية بوجل ، ثم رفع رأسه السسي الشرفة ، وهناك شاهد شريفة تقف وتلوح بيديها بحرارة .

بيروت

ماتت في اعماق يونس صرخة قوية معذبة . ماتت تحت الاشرطة اللاصقة التي اغلقت بها فمه ، زيادة في التعذيب ... وانظر الضابط ان يهز يونس رأسه فيامر الجند بنزع الاشرطة ، وبدعه يتحدث ، ويتلو أسماء عديدة طوتها ذاكرته . الا ان يونس لم يفعل ، بل ابقى رأسه مرفوعا .

رمق الضابط الجندي بنظرة متفق عليها . وفي لحظة خاطفة ، جزء من قماش فستان شريفة عند الصدر أصبح بين اصابع الجندي ، انتفض نديها الايسر ، وارتجف عدة مرات قبل ان يخمد حزينا ، يحرق في عيني يونس :

نديها صاح : اعترف

شرفه صاح : اعترف

الجندي كرر : اعترف

كرامته رجته : اعترف

الضابط صرخ : اعترف

رجولته زعقت : اعترف

الزنانة ، الضمفاء ، الفاشلون ، التجارب الفاشلة ، الانتهازيون ، الضابط ، المخبرون ، الالم ، التعذيب ، جسده ، الموقف :

اعترف . اعترف . اعترف ...

ظل يونس صامتا ، يرقب وجه زوجته ، وبقيت الدموع لفتهما الوحيدة للحظات قصيرة ، ارتعش بعدها جسده بقوة ، داخل الفيود ، وازداد توترا مع ضغط القيود على اعضائه ، لكنه خفض رأسه ، ثم رفعه وظل صامتا لبرهة ، صاح الضابط بعدها بعصية :

- جردوها من ملابسها !

(عندما تم ذلك امام عيني ، شعرت بهم يتسلقون جسدهما يعونهم ، يصعدون اللحم الصديق باقدامهم الصخرية ، يحفرون عليه بصماتهم . ومنذ تلك الحادثة ، قررت قتلها ... وفعلت ، لا زلت امر

روايات ومسرحيات مترجمة

من منشورات دار الآداب

فاسكو براتوليني
هنري باربوس
لورك
مارغريت دورا
جان بول سارتر
« «
» »
» »
» »

الشوارع المارية
الجحيم
ملريانا
هيروشيما حبيبي
نساء طراودة
تمت اللعبة
مسرحيات سلوتر
الفتيان
دروب الحرية ٣/١

الآن بيتون
نيكوس كازنتزاكي
البرنو مورافيا
البرتو مورافيا
غوستاف فلوير
موريس ويست
أريك سيفال
بيلر دوشين
المير كامو
ماريو بوزو

ابك يابودي الحبيب
زوربا
انا وهو
الانتباه
مدام بوفاري
السفير
قصة حب
الموت حيا
الموت السعيد
العراق